

## حلب في شعر شعرائها زمن الأيوبيين

د. أحمد فوزي الهيب<sup>(\*)</sup>

ظلت حلب على مدى الأزمان عقبة كأداء مستعصية أمام الطامعين، وحباً تخفق به قلوب العاشقين، وأغنية تصدح بها حناجر المغنين، وسفراً عظيماً كتبت فيه الحضارة العربية الإسلامية أسمى صفحاتها، وقصيدة عصماء يزين بها كبار الشعراء دواوينهم. نجد ذلك واضحاً في دواوين شعراء سيف الدولة الحمداني قاهر الروم، وفي مقدمتهم شاعر العربية الأول المتنبّي وأبو فراس الحمداني وغيرهما،

كما نجد ذلك جلياً أيضاً في شعر شعرائها، من أبنائها أو من غيرهم الذين اتخذوها موطناً لهم، زمن صلاح الدين الأيوبي وأبنائه من بعده، صلاح الدين قاهر الصليبيين ومحرر القدس من رجسهم، والذين قال يوم فتحت له قلعة حلب ذراعها، وصعد إليها حامداً لله تعالى معبراً عن سعادته بها: "ما سررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح حلب"<sup>(1)</sup>، ومثلما سعد هو بها سعدت هي وأهلها به، وعبر عن ذلك الشعراء بعامّة وشعراؤها بخاصة، ومنهم سعيد بن محمد الحلبي بقوله<sup>(2)</sup>:

وصبّحت شهباء العواصم مُصنّلتاً	قواضب عزم لا يُقلّ شهيرها
فأطيت منها غارباً فيك راغباً	وعاد يسيراً في يدك عسيرها
وأوطأت منها أخصيك تنوفةً	يعزّ على الشعري العبور عبورها

(\*) اتحاد الكتاب العرب - حلب.

<sup>1</sup> البداية والنهاية، أبو الفداء، مطبعة السعادة، مصر 1932، 313/12.

<sup>2</sup> الروضتين، أبو شامة، ت: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1956، 45/2.

وردٌ إليها رَوْحٌ عدلِكَ روحَهَا وكانت رَمِيماً لا يُرجى نشورها<sup>(3)</sup>

وسأكتفي هنا بالحديث عن الشعر الذي قاله فيها، وفيها فقط، شعراؤها زمن الأيوبيين، مادحين لها أو واصفين لما فيها، أو معبرين عن مشاعرهم اتجاهها في حلهم فيها، أو متحدثين عن أشواقهم في ترحالهم عنها، سواء أكانوا من أبنائها أم من الذين طاب لهم المقام فيها، فاتخذوها لهم موطناً وسكناً.

أعجب الشعراء بمعالم حلب الكثيرة الغنية، وأهمها قلعتها الفريدة المنيعة السماء التي أخافت صروف الدهر وأخجلتها، وسخرت من الزمان ومعاوله وكسرتها، وقهرت الملوك القاهرين، وردتهم على أدبارهم مهزومين، قال ابن أبي منصور، علي بن ظافر<sup>(4)</sup>:

وفسيحة الأرجاء سامية الذرى	قلبت حسيراً <sup>(5)</sup> عن علاها الناظرا
كادت لفرط سموها وعلوها	تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطئها المجرة منهلاً	ورعت سوابقها النجوم أراها
سماء تسخر بالزمان وطالما	بشوايق البنيان كان الساخرا
ويظل صرف الدهر منها خائفاً	وجلاً فما يمسي لديها حاضرا
ويشوق حُسن روائها مع أنها	أفنت بصحتها الزمان الغابرا
فلأجلها قلب الزمان قد اتثنى	قلقاً وطرق الجو أمسى ساهرا
غلبة غلب الملوك قطالما	قهرت من اغتصب الممالك قاهرا

ووصف محمد بن محمد بن علي أبراجها العالية الحصينة وسورها المنيع<sup>(6)</sup>:

طلعت نجوم النصر من أبراجها	فبروجها تحكي بروج سمائها
والسور باطنه ففيه رحمة	وعذاب ظاهره على أعدائها

وأعجب عبد الرحمن بن النابلسي بالميدان الأخضر الذي جدده الملك الظاهر حتى غدا مرجاً من مروج الجنة، ليكون مجرى للخيول وملعباً للكرة<sup>(7)</sup>:

<sup>3</sup> مصلاً: مجرداً، قواضب: سيف، شهيرها: مسلوطها، الغرب: ما بين الظهر والعنق، تنوفة: فلاة، الشعري: كوكب، رَوْح: راحة.

<sup>4</sup> الأعلام الخطيرة، ابن شداد، ت: دومنيك سودريل، المعهد الفرنسي، دمشق 1956، 170/1.

<sup>5</sup> حسيراً: كليلاً.

<sup>6</sup> إعلام النبلاء، الطباخ، المطبعة العلمية، حلب 1343 هـ، 548/3.

<sup>7</sup> الأعلام الخطيرة 167/1.



وكان جبل الجوشن المطل على حلب مغنى للشعراء، وصفوه وتغنوا به وتشوقوا إليه، مثل ابن نوفل الذي سفح الدمع شوقاً لنفحة تأتيه منه رطبة بماء قويق، ليسألها عن أحبائه الغالين في حلب، وليطمئن عليهم، ويتلذذ بذكرهم والحديث عنهم<sup>(11)</sup>:

صَبَّبَ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ مَوَكَّلُ  
قَدَمُوْعِهِ لَا تَأْتِي مَسْفُوحَةٌ  
أَوْ نَفْحَةٌ نَقَلَتْ لَهُ مِنْ جَوْشَنٍ  
تَأْتِي وَذِيْلُ رَدَائِهَا مِنْ مَاءٍ وَرِ  
فَتَظَلُّ وَهُوَ مَكْرَرٌ تَسْأَلُهَا  
فَتَعْيِدُ جَامَحَهُ ذُلُولاَ طَائِعاً

كما تغني أيضاً ابن سعدان برقّة نسيم الجوشن العليل وتلذذه بشمه واستنشاقه<sup>(12)</sup>:

والله ما خَفَقَ النسيم بأرضكم  
وَإِذَا الْجَنُوبُ تَخَطَّرتْ أَنْفَاسُهَا

إِلَّا طَرِبَتْ مِنَ النسيم الخافق  
مَنْ سَفَحَ جَوْشَنَ كُنْتُ أَوَّلَ نَاشِقِ

ورجا ابن العجمي أحبابه أن يخلّوا بينه وبين نسيم الجوشن، ليحمّله أشواقه وسلامه إليهم،  
وليسرح طرفه في ملاعب صباه في شعابه ومضابه الخضراء<sup>(13)</sup>:

فَخَلَّوْا نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ سَفْحِ جَوْشَنَ  
أَحْمَكَهَا شَوْقًا سَلَامِي إِلَيْكُمْ  
فَيَسْرَحُ طَرْفِي فِي ثَنَائِيَاتِ جَوْشَنَ

بِمَا فِيهِ مِنْهُ نَسَمَةٌ وَهَبُوبُ  
فَيَعْبِقُ مِنْهَا لِلجَنُوبِ جَيُوبُ  
بِرُوضِ رَعَاهِ الْعِزِّ وَهُوَ خَصِيبُ

وذكر محمد بن محمد الخضري معالم أخرى من حلب، مثل بطيাস وحيلان والميدان وغيرها، كما أقسم ألا ينسى ساعات الأتس فيها والرياض والأشجار والمنازل مدى الحياة<sup>(14)</sup>:

كَمْ فِيكَ مِنْ يَوْمٍ وَمِنْ لَيْلَةٍ  
مَا بَيْنَ بَطْيَاسٍ وَحِيلَانٍ وَالْـ  
مَنْازِلُ لَا زَالَ خَلْفُ<sup>(15)</sup> الْحَيَا  
مَرَّ لَنَا مِنْ غُرَرِ الدَّهْرِ  
مِيدَانُ وَالْجُوشُنِ وَالْجَسْرِ  
عَلَى رِبَاهَا دَائِمُ الدَّرِّ

<sup>11</sup>الأعلاق الخطيرة 168/1.

<sup>12</sup> معجم البلدان 2، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، 417/2.

<sup>13</sup> إعلام النبلاء 557/3.

<sup>14</sup>الأعلاق الخطيرة 166/1.

تالله لا زلت لها ذاكرًا  
وكيف ينساها فتى صيغ من  
وكل يوم مرّ في غيرها  
يا ليت شعري هل أراها وهل  
وأعجب ابن سعيد أيضاً بمتنزهات حلب التي تسر العين والقلب بتغريد طيورها وأزهار  
غصونها التي تتمايل للعناق<sup>(16)</sup>:

كم بها مرتع لطرف وقلب  
وتغني طيوره لارتياح  
ثم دعا لها ولجبل الجوشن ومنتزه بطياس والسعدي بالسقيا<sup>(18)</sup>:

لا خلا جوشن وبطياس والسعد  
وكذلك فعل ابن سعدان<sup>(20)</sup>:

يا ديار الشام حياك الحيا  
وتمشّت في نواحي حلب  
وسقى ساحتك الغيث الهمول  
شاردات الروض والساري البليل

هذا الحب الشديد لحلب من أبنائها، ومن الذين نزلوا فيها، وآثروها على بلادهم، فاتخذوها  
موطناً ومقاماً، جعلهم جميعاً يشترقون إليها إذا ما ابتعدوا عنها شوقاً شديداً، غنوه بأشعار رقيقة  
موارة بآلام الشوق والعاطفة الصادقة، مثل عيسى بن سعدان الذي ابتعد عن حلب فاشتاق إليها فمثّلها  
له البرق لامعة أمام ناظره<sup>(21)</sup>:

يا لبرق كلما لاح على  
حلب مثّلها نضب عياني

<sup>15</sup> هو اللناقة كالضرع للشاة.

<sup>16</sup> نفح الطيب 326/2.

<sup>17</sup> ممثلة.

<sup>18</sup> نفح الطيب 326/2.

<sup>19</sup> كرم.

<sup>20</sup> الأعلام الخطيرة 165/1.

<sup>21</sup> معجم البلدان 307/1.





وكذلك رآها الشاعر ابن أبي طيَّ النجار أسَّ الفخار ومحل العلياء، من ملكها ملك الأرض كلها، فقال<sup>(34)</sup>:

هي أسُّ الفخار من نال أعلا  
وما تعالي فخامة وتغالي  
ومحل العلاء من حلَّ فيها  
ناه كبراً وعزة وجلالا  
من حواها مملكاً ملك الأر  
ض اقتساراً سهولة وجبالا

هذا غيض من فيض مما قاله الشعراء في حلب وعنها في العصر الأيوبي الذي أخذت فيه حلب حيزاً كبيراً من شعر شعرائه الذين أحبوا حباً جمّاً، وتساووا جميعاً في هذا الحب، سواء أكانوا من أبنائها أم من غير أبنائها الذين اتخذوا منها موطناً أنساهم بلادهم وأهليهم، فمدحوها جميعاً، ووصفوها واشتاقوا إليها، وبكوها إذا ابتعدوا عنها بأشعار صادقة رقيقة وعواطف ساخنة، كما بدؤوا قصائدهم بتحياتها تحية حب وإجلال وإكبار، ودعوا لها بالسقيا على عادة الأقدمين، ووصفوا معالمها، ومدحوا أهلها، وأعطوها حقها من التقدير والتبجيل، وتحدثوا عما وجدوه فيها من منزلة ومنعة وإباء، شأنهم معها شأن كل الشعراء معها في كل زمن من الأزمان، لذلك لا غرو إذا اختارتها الأمة الإسلامية — هذا العام — عاصمة للثقافة الإسلامية.

